مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الثالث ،جوان 2023، ص - ص:09.-24.

نتائج التحولات الاقتصادية في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي وموقف التيار الإصلاحي منها

The conséquences of economic transformations in Algeria during the French occupation and the position of the reformist movement towards it Title in English

أحمد حداد(*)
قسم التاريخ ،جامعة عبد الحميد مهري ، قسنطينة2
haddadahmed22@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 11 /2021/07 تاريخ القبول: 24 /2023/03 تاريخ النشر: 10 /2023/06

الملخص: سأعالج في هذه المساهمة مختلف التحولات التي طرأت على الاقتصاد الجزائري بقطاعاته المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة، مبينا مدى الاستغلال المكثف للإمكانات الاقتصادية للأهالي في سبيل ازدهار اقتصاد الاستعمار الفرنسي. كما سأتناول التأثيرات المأساوية لهذه السياسة الاستعمارية الظالمة على المجتمع الجزائري والتي أدت إلى تشكيل طبقتين: الأولى تمثل الأقلية، تتكون من الأوربيين ، وتتمتع بجميع الامتيازات، والثانية تمثل الأغلبية الجزائرية والمحرومة من أبسط الحقوق. هذه الأخيرة لم تبق مكتوفة الأيدي بل قامت بالاحتجاج عبر صحافة نخبها، ومنها الصحافة الإصلاحية .

الكلمات الدالة: الاستعمار الفرنسي ، الحركة الوطنية ، الجزائر ، التيار الإصلاحي ، الصحافة ، جريدة الشعلة ، البصائر ، المعمرون ، المجتمع الجزائري ،الاقتصاد ، الفقر ، الأهالي ، الإنتاج ، الظلم .

Abstrac: In this contribution, I will discuss the various transformations that have occurred in the Algerian economy (agriculture, industry, trade) by indicating the extent of the intensive exploitation of the economic potential of the people for the prosperity of the French colonial economy. I will also address the tragic consequences of this unjust and aggressive colonial policy on Algerian society, which led to the formation of two classes: the first represents the minority which is made up of Europeans (settlers) who enjoy all the privileges. , and the second represents the majority of the Algerians, and is deprived of the most basic rights. This

* المؤلف المرسل.

	class did not remain inactive, but has protested through its elites press, including the Algerian reformist press.

Keywords:	French colonialism, the national movement, Algeria, the reformist movement, the press, Al-Shula newspaper, albassaiir, Algerian society, the economy, poverty, the people, production, injustice.

1. مقدمة:

شهدت أوربا أثناء القرن 18 تحولات إيجابية على الاقتصاد والمجتمع ، حتى أصطلح على ذلك القرن بعصر الأنوار ، وأهم ما ميزه تشكل الظاهرة الاستعمارية[1] التي استهدفت العالم الإسلامي ، بدعوى نشر الحضارة والأخذ بيد الشعوب المستضعفة ، وكانت الايالة الجزائرية من أوائل مناطق ذلك العالم التي سقطت تحت حكم الاستعمار الفرنسي سنة 1830. و الذي بنزوله على هذه الأرض ، توقفت مظاهر السيادة الوطنية التي ظلت قرونا من الزمن مسيطرة على شؤون البلاد، حامية لها من الأخطار الخارجية المتربصة بها ،وقد تجلت السلطة الاستعمارية الدخيلة في كافة الأجهزة السياسية، الاقتصادية، الثقافية والقضائية مما يدل على انقلاب في الوضع الداخلي الجزائري بعد الاحتلال مباشرة، واستمر بعد القضاء على المقاومات الشعبية ، إذ لجأت فرنسا لأساليب القهر والبطش لتغيير البنية السياسية و الاقتصادية للمجتمع الجزائري، غير أن الكيان الجزائري ظل يلملم جراحه ويستفيد من تجاربه السابقة حتى أصبح الفرق واضحا بين المشهد الاستعماري الفرنسي في الجزائر والمشهد الجزائري المقيد :الأول يعتبر نفسه هو المركز ، المسيطر على دواليب الحكم والمسير لمختلف القطاعات ومنها القطاع الاقتصادي ، والثاني يعيش سكانه في الهامش ، ويتحينون الفرص للرد على الممارسات الاستعمارية الظالمة واسترجاع سيادتهم المغتصبة .

1- الاقتصاد الجزائري بين عهدين (الجزائر العثمانية ، وفترة الاحتلال الفرنسي):

إن المتفحص للوضع الاقتصادي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ،سيلاحظ حياة اقتصادية مستقرة، حسنة ، تفي بحاجيات المجتمع ماعدا بعض القطاعات الصناعية التي لم ترق إلى ما وصلت إليه الصناعة في أوربا، أما في الميدان الزراعي فالجزائر العثمانية حققت اكتفاءها

الذاتي وضمنت أمنها الغذائي، وإنتاجها كان متنوعا ووفيرا كما شهد على ذلك الأسرى والمسافرون الأوربيون ،ومنهم مسافر فرنسي يدعى "طوماس" ، الذي وصف أحد بساتين فحص مدينة الجزائر التابع لمالكه "إبراهيم الكراغلي" ، إذ سرد مختلف أنواع الخضر والفواكه: من برتقال، ليمون، لوز، عناب، رمان، تين، تفاح، جوز، كرز ، التوت بنوعيه الأبيض و الأحمر، المشمش بالإضافة إلى مختلف أنواع الزهور وأصناف الخضر[2] . فقد حققت الجزائر في العهد العثماني ،أمنها الغذائي واكتفت من المنتوجات الزراعية ، فهذه سهول متيجة ومرتفعات الساحل وباقي الأقاليم الجزائرية الأخرى الخصبة تستغل في زراعة الحبوب وغراسة الزيتون وإنتاج الشمع والعسل ،الصوف، الجلود والأخشاب وهي في أغلبها موجهة للتصدير الخارجي[3] .وغنى الجزائر لاحظه الجنرال "بيجو"[4] Bugeaud سواء من حيث خصوبة التربة أو من جانب الكمية والوفرة بقوله: "أن الجزائر كانت تنتج فعلا الكثير من الحبوب ومن الثروة الحيوانية، ولها القابلية لإنتاج أكثر"[5] .

هذه الوضعية الحسنة للاقتصاد الجزائري في العهد العثماني ، جعلت الاستعمار الفرنسي يقوّض أركانه لصالحه وأول ما بدأ به موازاة مع الاحتلال العسكري نزع الأراضي الخصبة من الأهالي وتوزيعها على الوافدين الجدد، إذ أعلن قادة الاحتلال بأن نزع ملكيات الأهالي هو الشرط الأول الذي لا مفر منه ،لتثبيت أقدامهم على أرض الجزائر[6]، ومن هذا المنطلق شجع الاحتلال الفرنسي الأوربيين على الهجرة والاستيطان وقدمت لهم كافة التسهيلات والتشجيعات: فخلال ثلاث سنوات (مابين1842و1845) تمّت إقامة 35 مركزا للاستيطان ومُنح المعمرين105000 هكتارا[7]، كما أقام حاكم الاحتلال الفرنسي بالجزائر "راندون"[8] أثناء فترة حكمه ما بين 1852- 1858 ، 56 قرية استيطانية [9]، وبلغت مساحة الأراضي التي تمت مصادرتها ما بين(1840 - 1850) :2703000 هكتارا، و اقتصر اغتصاب ملكيات الأهالي على أجود الأراضي والسهول الخصبة المتوفرة على المجاري المائية، أما الباقي من الأراضي الرديئة والضعيفة الإنتاج فتترك للجزائريين[10] .وكان المعمّر الواحد يملك ما يربو على ستة وتسعين(96) هكتارا من أجود الأراضي وأطيبها ،بينما لا يملك

الجزائري سوى أربعة هكتارات أغلبها جرداء لا تكاد تصلح لرعي المواشي [11] . وقد شرّعت فرنسا قوانين تعسفية لتقليص ملكية الأهالي مثل قانون1851 الذي خوّل الدولة الاستعمارية حقّ الرقابة على الأراضي الجماعية للجزائريين،وقانون1873 المعروف بقانون "فارنيي" warnier ويعرف بقانون المعمرين، والذي يهدف إلى محاربة الملكية الزراعية الجزائرية وتطوير القطاع الزراعي الخاص بالمعمرين، إضافة إلى قوانين تفتيت الملكية الجزائرية والتي أوجدت ثغرات كبرى في ممتلكات الأهالي خاصة ممتلكات الشمل القبلية(العرش) فمثلا في مقاطعة وهران كان الملاك الصغار يبيعون للمعمرين القطع الأرضية العائدة إليهم بعدما فصلتها السلطات الاستعمارية عن أراضي العرش[12]. وبعد استحواذ المستوطنين على أجود الأراضي الجزائرية، نما قطاع زراعي جديد من حيث هياكله ووسائله وطبيعة إنتاجه بما يخدم الاقتصاد الفرنسي، إذ استحدثت مزروعات لا وجود لها في القاموس الفلاحي الجزائري[13]، منها زراعة الكروم التي زادت مساحتها مابين1929-1935 من226000 هكتار إلى400000هكتار . وتضاعف متوسط الإنتاج السنوي من 9265000 هكتولتر مابين1920-1929 إلى17100000 هكتولتر مابين1930-1938.

هذه الزراعة الغريبة عن المجتمع الجزائري نقلت إلى الجزائر بعد تعرضها لمرض خطير في فرنسا عام1875 عرف باسم " الفيلوكسيرا"[14] أدّى إلى تراجع مساحة أراضي الكروم في فرنسا من 2.5 مليون هكتار عام1870 إلى1.8 مليون هكتار. عام1890 فاعتبر هذا الحادث كارثة وطنية في فرنسا دفعت حكومة باريس إلى حثّ المستوطنين في الجزائر على التوسع في زراعته[15] ومنحتهم قروضا لذلك، وقد انتشرت زراعتها في السهول الغربية للجزائر واحتل منتوجها المرتبة الأولى للدخل في الميدان الزراعي ، إذ درت أرباحا على الخزينة قدرت بـ55 مليار فرنك سنة1953.[16] ومن المزروعات التجارية الأخرى التي لقيت اهتماما وتشجيعا لدى المستوطنين "التبغ" فتوسعوا في زراعته باعتباره منتوجا مربحا، وموجها أساسا للتصدير (حوالي 80٪ من الإنتاج). وهذه الزراعات كانت على حساب زراعة الحبوب التي تمثل الغذاء الرئيسي للشعب الجزائري ، إذ تقلصت المساحات الأهلية المزروعة بالحبوب تقلصا شديدا،

خاصة مابين1906-1921 وصاحبها نقص واضح في إنتاج القمح الصلب الذي أصبح مردوده ضعيفا بإنتاج قدر بـ3.7 قناطير في الهكتار الواحد بالنسبة لجميع الأراضي.[17]مما جعل الأهالي يعانون في غذائهم وأرزاقهم وتنتشر بينهم الآفات والأمراض.

وقد أحدث توجيه الإنتاج الزراعي من طرف الاستعمار تحولا في واقع الزراعة بالجزائر ببروز قطاعين زراعيين؛ الأول حديث يمثله المستوطنون، يسود السهول الخصبة ، و تستعمل فيه الوسائل المتطورة[18]، و القطاع الثاني تقليدي يمثله الجزائريون يسود المناطق الأقل خصوبة وبوسائل تقليدية. إضافة إلى أن الاحتلال وجه القطاع الزراعي وجهة رأسمالية تجارية تنتج للسوق الخارجية، متجاهلا الحاجات الغذائية للسكان حيث أصبحت الجزائر مملكة الكروم والحوامض والحلفاء بعدما كانت مملكة القمح قبل الغزو الاستعماري الفرنسي.

أما في المجال الصناعي: فحرص الاستعمار طوال مدة بقائه على ألاّ تكون صناعة ذات أهمية واضحة في أيّ ميدان من الميادين ماعدا صناعة الخمور وبعض الصناعات الغذائية الصغيرة: كمعامل الزيت، الصابون... وهذا الحرص على إبقاء الجزائر متخلفة صناعيا مرده إلى إدراك المستوطنين بأنّ إقامة مصانع في الجزائر كتلك المتواجدة في أوربا ،سيرفع من المستوى المادي والاجتماعي وينشر الوعي العمالي وبالتالي فقدانهم لليد العاملة الرخيصة.[19] زيادة على ذلك تصبح الصناعة في الجزائر منافسة لمثيلتها في الوطن الأم (فرنسا) وفي هذا الصدد أوضح مدير الشؤون الاقتصادية في إدارة الاحتلال بالجزائر قائلا:" ليس علينا الشروع في تصنيع الجزائر فإن ذلك من شأنه أن –يضعنا بصفتنا مستعمرة– في موقف عدائي بالنسبة للصناعة الفرنسية"[20] ، لذلك أبقى الاحتلال على الصناعة الاستخراجية وتحولت الجزائر كشأن كل المستعمرات إلى بلد يختصر دوره في كونه خزانا للثروات الطبيعية فقط، والتي على أساسها انطلقت وازدهرت الثورة الصناعية والتكنولوجية الفرنسية، إذ تضاعفت كمية المعادن المستخرجة حيث وصل إنتاج الفوسفاط سنة1954 إلى 600 ألف طن، والحديد إلى3.5 مليون طن، و الفحم إلى400 ألف طن[21]، وبخصوص المجال التجاري كانت الجزائر ملحقا تجاريا فرنسيا[22] ، يسيطر عليه المستوطنون الذين يلعبون دور الأسياد، أمّا الأهالي فكانوا بمثابة العبيد الذين لا

حول لهم ولا قوة، رغم كونهم القوة المحركة للاقتصاد الاستيطاني، ولولاهم لما أصبح المستوطنون أسيادا، يؤثرون على السوق الفرنسية، وهذا ما كشفه الخلاف بين منتجي الخمور في الجزائر ومنتجيها في الوطن الأم، مما جعل المنتجين في فرنسا يطالبون بتوقيف الاستيراد من المستعمرة الجزائر لأن ثمن الأجير في المنطقتين يختلف اختلافا كبيرا باعتبار أن الأهلي يتقاضى أجرا ضعيفا مقارنة بالعامل في فرنسا، لذلك فأسعار خمور المستوطنين تكون أقل، وتنافس الإنتاج في الوطن الأم (فرنسا) .

2- انعكاسات التحولات الاقتصادية على المجتمع الجزائري

إن التحولات الاقتصادية و الممارسات الاستعمارية التي شهدتها الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي -والتي تطرقنا لجزء منها فيما سبق- أسفرت عن تكوين طبقتين متناقضتين: طبقة ثرية من المستوطنين تمثل الأقلية، تستحوذ على الاراضي ،تتمتع بالامتيازات وتلعب دور " السيد "، وطبقة واسعة فقيرة تمثل السكان الأصليين، فُرض عليها أن تكون في خدمة الطبقة الأولى وليس لها ادنى الحقوق، وهذا ما خلق فجوة كبيرة بين الطبقتين وأثر تأثيرا بالغا على الوضعية الاجتماعية للشعب الجزائري . ولم يرض كل الجزائريون بهذا الاستعباد الاستعماري ، إذ اضطر اولئك الذين همشوا و مست مصادر رزقهم بعدما سلبت منهم أراضيهم ظلما وعدوانا وسلمت إلى أوربيين غرباء أو إلى شركات استغلالية كبرى للهجرة ،اضطروا للهجرة ، التي كانت في البداية كردة فعل على الاستعمار الفرنسي المسيحي ،بعد فشل المقاومات الشعبية امتثالا لقوله تعالى:" ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"[23]، ثم تواصلت إلى المشرق العربي بعد فرض قانون التجنيد الإجباري سنة1912.و أثناء الحرب العالمية الأولى (حقيقتها حرب أوربية غربية) وبعدها ،أصبحت فرنسا هي الوجهة الثانية لهجرة الجزائريين بغية تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية " إذ كانت المناطق الأشد فقرا في الجزائر هي الأكثر تصديرا للمهاجرين" [24]، وقد اكتشف المهاجرون إلى فرنسا حياة جديدة تختلف عن حياتهم التعسة في بلدهم المستعمر وأتاحت لهم فرصة الإقامة في فرنسا الاحتكاك بالمجتمع الفرنسي، ومحاكاته في الملبس، المأكل والمشرب ، ومكنتهم من التعرف على عقلية الطبقة العاملة من فرنسيين وأوربيين

والاطلاع على الاتجاهات السياسية هناك ، في جو من الحرية المفقودة في بلادهم، وعندما لاحظ المستوطنون ما أصبح عليه المهاجرون بفرنسا من يقظة، ألحوا على السلطة هناك بتوخي الحذر منهم ، مطالبين بالمراقبة والسهر على "حمايتهم من الانحراف" على حد تعبيرهم، والأكثر من ذلك وبسبب فقدانهم لليد العاملة الرخيصة ، عملوا كل ما في وسعهم من أجل أن تصدر السلطة في باريس تعليمات وزارية خلال سنة1924 تنظم الهجرة [25] بل وتقيدها وقد ألغيت هذه التعليمات بعد حادث مأساوي على متن باخرة سيدي فرج [26] .

حرصت فئة المستوطنين على إحكام سيطرتها على دواليب الحكم والاقتصاد في الجزائر ، إذ اصبحت تمثل في الريف النظام الإقطاعي، وفي المدينة تمثل النظام الرأسمالي: 14% منهم يمارسون الزراعة و 29% يتواجدون في القطاع الصناعي و57% في قطاع الخدمات[27]، هذه الأقلية الأوربية هي المسيطرة بشكل أساسي إذ يمثل أفرادها 92.7 %من الإطارات العليا، ويستحوذون على 86% من الوظائف العامة ،هذه المجموعة تنعم أكثريتها بمستوى معيشي رفيع فإحصائيات 1951 تشير الى وجود 560000 شخص برجوازي ، ونفقات العطل تصل في الجزائر إلى نحو20 مليار فرنك قديم لـ 187000 مصطافا.[28]

كون المعمرون هذه الثروات لأنهم من بداية الاستيطان وهم يجمعون الثروة ولا يولون الجوانب الإنسانية أي اعتبار، وهذا ما أكدته اللجنة التي شكلها الوالي العام لدراسة الوسائل الكفيلة بمعالجة الوضع المتردي في الجزائر، وقد خلصت اللجنة إلى تعريف المعمر على أنه " سيد عظيم الشأن ، مالك من ذوي الجاه والنفوذ، شخص انتهازي ،يحب الأبهة، يعاملك بمنتهى الوقاحة ،أناني، شديد المكر بالآخرين، تسامى فوق كل المؤسسات، دبر الأمور بكيفية تسمح له بالتدخل مباشرة أو بتسخير غيره ممن يقوم على خدمته" [29]

والمقصود بهؤلاء الذين يقومون على خدمة الأقلية الأوربية هم الذين يشكلون الطبقة الواسعة من السكان الأصليين والتي يمكن تقسيمها إلى فئتين: الفئة الأولى تتكون أساسا من الفلاحين الذين يمثلون 91% من الجزائريين وهي فئة مهمشة ،مهضومة الحقوق، تقهقر إنتاجها الاقتصادي و ساءت وضعيتها بسبب الاستعمار، الذي سلبها حقوقها وأرهقها

بالضرائب. أما الفئة الثانية وهي المحظوظة بعض الشيء تتكون من التجار والحرفيين، وقد تحصلت على بعض الامتيازات في بدايات الاحتلال، لتسهل له المهمة ،ثم نمت تدريجيا لتكون ما اصطلح على تسميته بالنخبة ،التي تراوح عددها في الثلاثينيات من القرن الماضي ما بين 20ألف إلى25 ألف مواطن. أما الطبقة الإقطاعية والرأسمالية فلا وجود لها بين الجزائريين.[30]

ويجمع كتاب ومؤرخو الحقبة الاستعمارية على أن السواد الأعظم من الشعب الجزائري كان يعيش حالة من البؤس لا مثيل لها: فقر مدقع، أمراض فتاكة لا وقاية منها ولا منقذ من شرها إلا رحمة الله ولطفه، أما الغذاء فيكاد يكون مفقودا، "وكانت أيام الشبع محدودة لا تتجاوز في العام أصابع اليد الواحدة وهي أيام الأعياد والمواسم"[31] وعلى سبيل المثال في سنة1936 كان السكان الأهالي بعين توتة وبريكة (بباتنة) يأكلون القريوة أو تالغودة [32] و أثناء مرور لجنة البحث البرلمانية في مارس1937 بعين مليلة، كان 20 ألفا من الأهالي رجالا ونساء وأطفالا يسرعون الخطى في أنهج القرية وهم غاية في النحافة كالأشباح التي لاتزال حية، وقد أسرعوا الخطى لينادوا أمام أعضاء اللجنة: "إنّنا نموت جوعا ولم نجد شيئا نأكله حتى جذور تالغودة والحشيش ، إننا نفضل أن نموت أمامكم، فدوسونا بسياراتكم، فإن القياد والحاكم الفرنسي هم الذين صيّرونا إلى هذه الحالة القصوى" [33].

من هذه الحادثة نستنتج أن الأوضاع الجزائرية كانت مزرية، فما بالك إذا كان الظرف ظرف حرب، إذ يذكر أحمد بن بلة في مذكراته" أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية انجر عنها ندرة السلع الغذائية وغلاؤها، ومعاناة الأهالي كانت مضاعفة حتى أصبح الفقر إملاقا والإملاق تحول إلى بؤس، وكما في كل وقت عندما يتفاقم نقص التغذية عند أوسع الجماهير الإنسانية فإن الأوبئة تضيف فتكها إلى الجوع ،وفي سنوات معدودة قتلت حمى التيفوس الطفحية مئات الآلاف من الجزائريين:[34]. ولم يقتصر بؤس الجزائر خلال الحروب فقط بل في كل السنوات ، إذ يستغلون أبشع استغلال ، يؤدون الواجبات وزيادة ، ولا يتحصلون على أدنى الحقوق و لا يستفيدون من أبسط الخدمات بالرغم من التزامهم بدفع الضرائب المجحفة [35]، وهذا ما نبهت إليه جريدة "المنتقد" التي وصلها توقيع40 تاجرا من

بلدة "الزقم" بتبسة، يشكون الوالي العام عدم وجود فرع بريدي ببلديتهم التي يسكنها 3آلاف نسمة [36].

3. موقف التيار الإصلاحي من التحولات الاقتصادية :

إن التحولات الاقتصادية التي شهدتها الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لم تكن في صالح السكان الأصليين الرافضين أصلا للوجود الاستعماري وقاوموه مقاومة مسلحة طيلة 86 سنة بالسلاح (1830 -1916) ،تكبدوا خلالها خسائر كبيرة في الأرواح أمام الهمجية الاستعمارية المبنية على التفوق العسكري ، غير أن تلك الخسائر هي الضمان للتمايز وعدم القبول بالظلم و بالوافد الجديد . و لما فرض الاحتلال نفسه كأمر واقع استمر الجزائريون في تنديدهم بالظلم الاستعماري بطريقة مغايرة إذ نظموا أنفسهم في شكل جمعيات وأحزاب سياسية إنضوت تحت ثلاث تيارات كبرى هي : التيار الاستقلالي ، التيار الإصلاحي والتيار الإدماجي ، هذا الأخير الذي كان منبهرا بالقيم الفرنسية ورغم تقديمه للتنازلات إلا أن الاحتلال أمعن في تهميشه غير أن التيارين الأوليين تميزا بالتكامل و بالروح النضالية و الشجاعة في القول والعمل، والصلابة في المبادئ الثورية والتضحية معبرين من خلال صحافتهما بشدة عما آلت إليها الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية للشعب الجزائري ،منتقدين وموجهين الاتهام علانية للاستعمار وأعوانه . ومن تلك الصحف التي كانت صوتا للمظلومين اجتماعيا " أسبوعية الشعلة "[37] ،ففي مقال لها سنة1950 يحمل عنوان " من المسؤول عن هذا التشرد" كتبت تقول :"يوجد في ا لجزائر اليوم جيش جرار من الأطفال المتشردين في الأسواق لا مأوى ولا طعام لهم، ولا عائلة تحميهم، ولا مدارس تثقفهم، فهم يتلقون تعليمهم في الشارع ، والشارع أكبر مدرسة للتشرد والفساد، ولا سيما للجائع والمحتاج، من المسؤول؟ هل هو الشعب المغلوب على أمره أم الحكومة التي يجوب ممثلها ليردد جملة "الجزائر الفرنسية "كأنها البلسم الشافي لجراح الجزائريين"[38] كما جاهر الجزائريون بمشاعرهم الوطنية ونددوا بالتعسف الفرنسي حتى وصفهم الأوربيون بأنهم متعصبون ومتطرفون، فرد عليهم أحد الجزائريين "إذا كان التعصب حب ديني وجنسي وبلادي فإني من أشد المتعصبين"

[39]،كما أن حالة التوتر والغليان في الوسط الجزائري كانت انعكاسا للوضع الاقتصادي و الاجتماعي المأساوي الذي يعيشه معظم الجزائريين، وأخذ هذا التوتر ينمو تدريجيا حتى تكونت قناعة لدى الشعب الجزائري بأن آفاق مستقبله مسدودة وأن أشياء ثمينة فقدها بسبب الاستعمار هي الأرض والحرية والصحة البدنية والمؤسسات القومية واللسان القومي، وما كان يدعيه الاحتلال من إنجازات– مثل بنائه المستشفيات ومدّ الطرقات–لم تكن إلاّ بعرق المجتمع الجزائري، وبماله ورغم ذلك لم يستفد منها إطلاقا[40] ، لذلك يلاحظ على الشعب الجزائري نوع من التذمر والسخط على أوضاعه المزرية خاصة ما بين الحربين فراح يصرخ ويئن ، يحتج ويتظاهر سلميا دون لجوء إلى العنف وقوة السلاح، إذ استعمل العرائض واللوائح والوفود و المظاهرات و الصحافة حتى أنشد الشاعر الصحفي مُحَّد السعيد الزاهري واصفا جانبا من المأساة[41]:

صار اليهود اليوم لم يستخدموا — في الدور غير بناتنا الأبكار
من بعد ما كانوا عبيد جدودنا — من قبل قرن وسط هذي الدار
أبني الجزائر لا أرى في هذه — أبدا لنا عذرا من الأعذار
أتصبرون على انتهاك حماكم — من بعد ما كنتم عزيزي الجار

كما فضحت الصحافة الإصلاحية المعاملات التجارية التي تفضل المستوطنين وتهمش الأهالي ، فعلى صعيد تسويق المنتوج المحلي للسكان الأصليين كالتمر، الزيت، التين فتوضع أمامه العراقيل حتى يفلس التجار والملاك الأهالي، ومن هذه العراقيل ما وصفته لنا جريدة الشعلة لسنة1949 :"في السنة الماضية أراد تجار تصدير منتوجاتهم من التمر إلى أوربا، فصفعوا بقانون غريب عجيب يفرض عليهم، إلا التمر الذي تزن الحبة منه كذا غراما ويبلغ طولها كذا، فلم يصدر التجار منتوجهم وخسروا ثروتهم، وبقيت الأسواق حاليا خالية" وتواصل الجريدة لتحدد المسؤول عن إفلاس التجار والملاك وخلاء السوق من المنتوج:" والحكومة نائمة لا تحرك ساكنا إلاّ جمع المغارم الفادحة قبل أوانها كما حصل في السنة الماضية في وادي ريغ. والمسألة ليست مسألة التمر وحده، فقد حصل للتين والزيت ما حصل للتمر، فلم يتحرك

المجلس الجزائري ويعمل حسنة في حياته، إن أملنا في ذلك ضعيف جدا لأن هذا المجلس لم يخلق لعمل الحسنات وليست مهمته بحث المنتوج الجزائري وتحسين حالته، وإنما فرض المغارم الفادحة التي تضرب المنتوجات الوطنية ليموت الشعب الجزائري إلى الأبد"[42] . وحتى الفلاحون الجزائريين العاملين في مزارع المستوطنين يهانون بل ويقتلون ولا تنصفهم العادلة الفرنسية إذ لا يتساوى فيها المعمر مع الجزائري، والمحاكم ستقضي حتما لصالح الفرنسي أو العميل، ومن الأمثلة على ذلك ما وقع في15أفريل1925 بقرية "مسيلة" بحوز الأصنام إذ حدث خلاف بين المعمر "ثروشي إيميل" وفلاح من الأهالي، انتهى بملاحقة المعمر للجزائري وأخرج مسدسه فأرداه قتيلا. وأثناء المحاكمة ادّعى المستوطن أنه فعل ذلك دفاعا عن النفس فبرأته المحكمة التي أقرت دية لوالد المقتول تقدر ب5000 فرنك. هذا الحكم جعل ابن باديس يكتب قائلا: "الأهلي أعزل، هارب من رؤية المسدس، والمعمر يسعى وراءه فيقتله ومع هذا يعد مدافعا عن نفسه، هذا وربك الجور الذي خرب الممالك وليست هذه النازلة بالوحيدة، فلها أخوات، فمتى تنفذ يا ترى العدالة الفرنسوية الحقة وتنتصر على جور غلاة الاستعمار"[43].

و من مظاهر الظلم الاقتصادي والاجتماعي للاستعمار غلقه لأبواب الكسب الكبيرة في وجوه الجزائريين وفتحها لأبنائه وقصرها عليهم، إذ حرم الجزائريين من مصادر الرزق و عودهم البطالة وفتح لهم أبواب الفساد الخلقي ودفعهم إليها دفعا بكل الوسائل، فتسلط الفقر على المسلمين، والفقر مع خلو النفس من الدين وأمّ الموبقات سبب كل الجرائم، فانتشرت الآفات الاجتماعية بين الأهالي [44]،لكن الأمة الجزائرية لا تخلو ممن سيصرخ محذرا ومنذرا وناصحا مثل الصرخة المدوية التي أطلقها أحد كتاب جريدة البصائر بمقال له بعنوان "المنكرات الاستعمارية بالبوادي القبائلية" إذ قال : "إنّ الاستعمار هو منبع المفاسد ومنبع الفواجع و المعاطب، وأثر مفسدة جاوزت حد الوقاحة، وبلغت منتهى الفظاعة مثل فتح باب الفحشاء والمنكر على مصراعيه في وجوه الشبان الذين هم عماد العز وذخر المجد، عوض أن تهيأ لهم المدارس والمصانع وتفتح في وجوههم أبواب التهذيب والتثقيف"[45]. ولم يقتصر الظلم الاستعماري على نشر الفاحشة، بل تعداها، مرة أخرى، إلى الإبادة والقتل العشوائي،

للجزائريين المنددين بما آلت إليه أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المزرية ، مثلما حدث في مدينة سور الغزلان يوم4 أفريل 1948 مما جعل أحمد رضا حوحو يصف هذا الظلم وصفا دقيقا ويبين آثاره قائلا:"تلك الحادثة التي قتل فيها رجال، ورملت فيها نساء، وثكلت فيها أمهات، ويتم فيها أطفال وأريقت فيها دماء، سيبقى لونها القاني مصبوغا على أديم تلك التربة ما بقي الاستعمار وما بقي ظلمه وطغيانه على هذه الأرض. سالت فيها دموع بللت الثرى، لن تقوى حرارة الشمس ومر الزمن على تجفيفها، وجرحت فيها القلوب جروحا عميقة لن تنفع المراهم والعقاقير لاندمالها، لأنها دماء الضحايا وقلوب الأمهات ودموع الأبناء والزوجات من الأبرياء والمساكين".[46]

4.الخاتمة:

كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي يعيش حياة اقتصادية و اجتماعية هادئة ومنسجمة ، يفي بحاجياته الغذائية وغير مكترث لمجريات التغيير الفكري والاقتصادي الذي تشهده أوربا في القرن 18 ، حتى تفاجئ بسقوطه في يد الاحتلال الفرنسي الذي سهر على خلخلة وتفكيك ذلك الانسجام .وقام بتحطيم البنى الاقتصادية للجزائر ، بمصادرته للأراضي وتوزيعها على الأوربيين، وكلما عاشت فرنسا أزمة إلا ووجدت الحل في المستعمرة الجديدة، سواء من حيث تصريف فائض سكانها، أو إنتاجها ،أو حتى تجارها المختلفة وبالتدريج وجد الجزائريون –أصحاب الأرض –أنفسهم في وضعية الغرباء، ولم يكن لهم من حل سوى الهجرة أو العمل في مزارع وضيعات المعمرين، يتقاضون أجورا زهيدة وفي ظروف معاكسة تماما للمبادئ التي تتفاخر بها فرنسا والمتمثلة في الحرية الأخوة والمساواة. وبناء على تلك التحولات التي شهدتها البلاد أصبحت حياة المجتمع الجزائري تسير وفق مشيئة المستوطنين الأوروبيين الذين تجردوا من صفة الإنسانية، ولم تكن السلطة الاستعمارية لتلتفت إلى هذا المجتمع إلاّ إذا تعلق الأمر بفرض مختلف أنواع الضرائب ، وتسخيره لخدمة الأقلية الأوربية . ولم يكن الجزائريون راضون بالتحولات الظالمة التي فرضها الاستعمار ولم ينقطع وعيهم منذ نكبتهم سنة1830 وإنما كان يفتر ويختفي أمام الضغط والإرهاب الاستعماري الشرس، ويتحيّن الفرص

ليعود للظهور من جديد ، مكونا التراكمات الإيجابية التي مهدت للثورة التحريرية واسترجاع الاستقلال .

5.الهوامش

[1]- يرفض الغرب اليوم ، دراسة هذه الظاهرة دراسة جدية و موضوعية والتستر على الجرائم المرتكبة في حق الشعوب التي مازالت – في نظر الغرب الإستعلائي – هي الهامش وهو المركز . فالحضارة الغربية اليوم من مقدساتها التي لا تمس عصر الأنوار، واية دراسة للاستعمار الغربي هي إدانة له و لمنطلقاته.

[2]- ناصر الدين سعيدوني : ورقات جزائرية ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،ط1، 2000 ،ص401.

[3]- المرجع نفسه ،ص402.

[4] - الجنرال بيجو Thomas Robert Bugeaud (1774-1849) :يعرف كذلك بديزلي. رقي إلى رتبة مارشال فرنسا في 31 جويلية1843.حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في إسبانيا، تولى الحكم في الجزائر من 29 ديسمبر 1840 إلى29 جوان1847، سلك خلالها سياسة القهر ،العنف، الإبادة، التهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين.

[5] - Le Général Bugeaud ; l'Algérie des moyens de conserver et d'utiliser cette conquête , Marseille, 1842 ,p46.

[6]- رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية ،الشركة الجزائر الوطنية للنشر التوزيع،الجزائر،ط2،1981،ص86.

[7]- صالح فركوس : تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال،دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر،د ط، 2005، ص331.

[8] - إسمه الكامل : Jacques Louis César Alexandre, comte Randon) 1795- 1871).

[9]- شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور ، منشورات عويدات، ط1، 1983،ص51.

[10]- تركي رابح :المرجع السابق،ص86.

[11]- صالح فركوس : المرجع السابق، ص422.

[12]– مصطفى الأشرف: الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983،ص16.

[13]– عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر: مُحَمَّد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط،2005 ، ص80.

[14]– الفيلوكسرا Phylloxera :نوع من الحشرات الذي يسبب خسائر فادحة في زراعات الكروم .

[15]– شارل روبير أجيرون :المرجع السابق ،ص16.

[16]– المرجع نفسه ،ص126.

[17]– عبد الكريم بوصفصاف :المرجع السابق ،ص87.

[18]– في الثلاثينيات من القرن الماضي أدخلت الآلة الحاصدة للجزائر وأصبحت الآلة الواحدة تعوض مائة عامل.

[19]– عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق ،ص86.

[20]– رابح تركي :المرجع السابق، ص89.

[21]– صالح فركوس :المرجع السابق، ص422.

[22]– المرجع نفسه ،ص364.

[23] سورة النساء ، الآية 97.

[24]– عبد الحميد زوزو: الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين(1919-1939)،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،د ط،1985،ص27.

[25]– المرجع نفسه، ص16.

[26]– أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط4. 1992،ص301.

بعد صدور القرار المقيد للهجرة أصبح الجزائريون يخاطرون بأنفسهم، مثل أولئك الجزائريين الذين اختفوا سرا في مخزن الفحم بقاع الباخرة حتى لا تعلم الشرطة بهم ويقطعوا البحر إلى فرنسا بغية تحسين أوضاعهم لكنهم اختنقوا ،وأثارت هذه الحادثة ضجة واستنكارا من طرف الحركة الوطنية وقال فيها الشاعر مُحَمَّد العيد آل خليفة :

علام يظل دهرك مستريبا تسائله ويأبى أن يجيبا
قسا البلد الجريح وضاق ذرعا بهم فتيمموا البلد الرحيبا

وقالوا أن في باريس عيشا يروق غضاضة ويلذ طيبا
فسدت في وجوههم النواحي مسالكها ولم ترحم حبيبا

[27]- شارل روبير أجيرون،المرجع السابق ،ص124.

[28]- المرجع نفسه ،ص128.

[29]- مصطفى الأشرف، المرجع السابق ،ص17.

[30]- رابح تركي :المرجع السابق،ص ص 92،93.

[31]- مُحَمَّد الصالح بن عتيق:أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر،د ط ، 1990،ص31.

[32] - تالغودة: هي بقلة نباتية يأكلها الفقراء في سنوات المجاعة عوضا عن الحبوب لأن طحينها يشبهها ولكنها رديئة وضعيفة المردود الغذائي.

[33]- عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر(1920-1936)، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1984 ،ص344.

[34]- بن بلة أحمد: مذكرات أحمد بن بلة، ترجمة العفيف الاخضر ،دار الأدب، بيروت،ط 3 1981،ص42.

[35]- مجال المغارم والضرائب هو مجال آخر لتعسف الاستعمار الفرنسي الذي لم يكتف باغتصاب أراضي السكان الأصليين ومنحها للمستوطنين، بل فرض عليهم سلسلة من الضرائب المتعددة الأشكال: منها ما هو عام ويشمل الأوربيين، ومنها ما هو خاص بهم مثل الضرائب العربية التي لم يتم إلغاؤها إلا سنة1919 - أنظر شارل روبير أجيرون :المرجع السابق ،ص109.

[36]- سكان بلدية الزقم : كتاب مفتوح إلى جناب الوالي ،المنتقد ،العدد 5 ليوم1925/7/30.

[37] - تم إصدار جريدة الشعلة بقسنطينة من طرف مجموعة من الشباب الموظفين في معهد بن باديس ، وكما هو موضح في الصفحة الأولى من عددها الأول ليوم 22 صفر 1369 الموافق لـ 15 ديسمبر 1949 بأن إصدارها كان بالتعاون مع جمعية العلماء ونخبة من المصلحين الشباب ، وبينت الجريدة خطها الافتتاحي بأنها جريدة للكفاح والانتقاد بقولها : " إن في الشعلة لنارا وإن فيها لنورا لك أيتها الأمة الكريمة وإلى أبنائك المناضلين الفاعلين لا القوالين ، من الشعلة النار والنور اللازمان لنحر الكائن الحي وإرجاعه

على هدي نورها ...وعلى أعدائك والمتكالبين عليك من الشعلة أن يفتضح من نورها الظالم الكائد والخائن واللص والسارق والغادر ، ليحترق بنارها الاستعمار بيت و أصل كل بلاء وينبوع مختلف الشرور ، وسيكتوي بها أعوانه : الحاكم... الجلاد الأثيم ...والخائن " أنظر العدد الأول من الشعلة الصادر يوم 15 ديسمبر 1949 ص 2.. أشرف على إدارتها أحمد بوشمال ، وعلى التحرير أحمد رضا حوحو، وصاحب الامتياز الصادق حماني .

[38]- الشعلة : من المسؤول عن هذا التشرد ، العدد13، السنة الأولى ،ليوم 9مارس1950 ، ،ص3

[39]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية،ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،ط 4،ص38.نقلا عن أندري نوشي، ميلاد الحركة الوطنية ،باريس ،1962 ، ص68.

[40]- مصطفى الأشرف:ا المرجع السابق ،ص100.

[41]- عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون ، المرجع السابق ، ص349.

[42]- المنتوجات الجزائرية في خطر، أسبوعية الشعلة، العدد2،ليوم1949/12/22 ، ص1.

[43]- عبد الحميد بن باديس:عند من..؟عند العدالة الاستعمارية ، المنتقد ،العدد06 ،ليوم 1925/8/6.

[44]- مُحَمَّد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر1921-1975، ج1، دار البعث،قسنطينة ،ط1 1974 ،ص25.

[45]- يوسف اليعلاوي: المنكرات الاستعمارية بالبوادي القبائلية، البصائر،العدد43، السلسلة التانية، ليوم 12-7-1948 ،ص3.

[46]- أحمد رضاحوحو: البصائر، السلسلة2،عدد33،ليوم 26-4-1948، ص7.